جماليات لغة الوصف في الرواية النسوية الجزائرية

(دراسة نماذج مختارة)

Aesthetics of the language of description in the Algerian feminist novel (study of selected models)

أحلام مناصرية *

تاريخ الإرسال: 2020/ 03/04	تاريخ القبول:2020/05/05	تاريخ النشر:2020/06/30

الملخص:

تهتم هذه الدراسة بتقنية من أهم تقنيات الكتابة الروائية، وهي تقنية الوصف، وتحاول أن تختبر مدى حرص منجز السرديات على الاحتفاء بتوظيفها من خلال نماذج روائية نسوية جزائرية ،ويأتي ذلك نتيجة لتزايد اهتمام بعض الروائيات بها في تشييد معمار نصوصهن لما لها من أثر في منح الحكي خصوصية تميزه وتجعله يحظى بالاعتراف، ويظفر باستحسان المتلقي .وإذا كانت لغة الوصف تقنية زمنية غير منقطعة الصلة بباقي العناصر البنائية الأخرى كالأحداث والشخصيات والفضاء؛ حيث تعمل على استبطانها ورصد صورها وأبعادها، فإنها تشترك معها في بناء التشكيل الفني والجمالي للنص الروائي النسوي الجزائري على نحو يكفل له التفرد والتميز الناتجين عن خصوصية المرأة المبدعة في التعامل مع أبجدياتها تبعا لخصوصية تركيبها؛ وقد فرضت لغة الوصف نفسها بقوة في منطق السرد واضطلعت بوظائف فنية وجمالية أمدتنا بمفاتيح مساعدة لولوج عوالم الروائية الجزائرية والتعرف على مرجعياتها الفنية والإيديولوجية **الكلمات المفتاحية**: الوصف، التقنيات السردية، الرواية النسوية الجزائرية، خصوصية الوصف الأنثوي.

Abstract:

This study is concerned with one of the most important techniques of novel writing, which is the description technique, and it tries to test theextent of the accomplishment of the narrators of celebration of employing them through Algerian feminist narrative paradigms, and this comes as a result of the increasing interest of some female narrators in constructing the

المؤلف المرسل: أحلام مناصرية *ahlem24menasria@gmail.com*

* جامعة منتوري- قسنطينة 1ahlem24menasria@gmail.com

architecture of their texts because of their effect in granting narration The peculiarity of its distinction and its recognition.

The description language is an uninterrupted temporal technology that is related to the rest of the other structural elements, such as events, personalities and space, as it works to internalize and monitor its images and dimensions, and it participates with it in building the technical and aesthetic formation of the Algerian feminist narrative text in a way that guarantees uniqueness and distinction resulting from the privacy of the creative woman in dealing with her alphabet According to the peculiarity of its composition on the one hand, and given the importance of celebrating it on the other hand, as it imposed itself strongly in the logic of the narration and carried out technical and aesthetic functions, it provided us with auxiliary keys to enter the worlds of the Algerian novelist and learn about its artistic and ideological references.

***Key words**:* description, narrative techniques, feminist narration, specificity of female description

*** *** ***

مقدمة:

لقد أصبحت الرواية النسوية الجزائرية تتبوأ مكانة مرموقة ضمن مجالات الإبداع الأدبي لما تتوفر عليه من خصائص فنية وجمالية تكشف عن كون الكتابة الروائية لدى المرأة الجزائرية كتابة واعية بضرورة التغيير والخلق والتجديد باعتبار أن الرواية فضاء لأساليب تعبيرية متنوعة وتقنيات لغوية متعددة، ولئن كانت جل جهود النقاد التي توجهت إلى دراستها قد اقتصرت على الاهتمام بمواضيعها والهواجس التي تؤرقها دون إيلاء الأهمية للغتها بمختلف مستوياتها خاصة ما يتعلق منها بتقنيات الكتابة الروائية وميكانيزمات اللجوء إلى الوصف باعتباره من أهم أبجديات تشكيل معمارها، فإننا ومن خلال هذه الورقة البحثية التي تنطلق من مبدأ أساسي يؤكد على عدم إمكانية دراسة الرواية النسوية الجزائرية بمعزل عن مستويات اللغة فيها، وبمنأى عن أهم تقنيات الكتابة الروائية، نحاول تسليط الضوء على تجليات لغة الوصف في نماذج من الرواية النسوية الجزائرية للوصول في مرحلة لاحقة إلى الكشف عما يضفيه توظيف الوصف على مستواها وبنيتها اللغوية من سمات تميز وملامح جمالية تنفي فكرة كونه ترفا لغويا أو مجرد تزين ديكوري.

لقد أنبنى اختيارنا لمدونة الدراسة ممثلة في نماذج من الرواية النسوية الجزائرية- "ثلاثية أحلام مستغانمي" وثلاث روايات "لفضيلة الفاروق" :"مزاج مراهقة"، "تاء الخجل"،" اكتشاف الشهوة"، ورواية "جسر للبوح وآخر للحنين" لزهور ونيسي، رواية" أوشام بربرية" لجميلة زنير، رواية إنعام بيوض "السمك لا يبالي"- بعدما كشفت قراءتها قراءة فاحصة عن عناية الروائيات الجزائريات بالتقنيات اللغوية للكتابة الروائية نظرا لقناعتهن بالأهمية التي تحظى بها في التشكيل الفني والجمالي للنص الروائي، الذي يخضع بدوره لخصوصية تعامل المرأة مع أبجدياته تبعا لخصوصية تركيبتها التي تفضي إلى عناية بالغة بإيراد التفاصيل والتعريف بالموصوفات، والسعي إلى نقل أبعادها واستبطان حقيقتها ورصد حركتها، ولم تجد الروائية لها في ذلك أفضل من الاشتغال على تقنية الوصف وتكثيف حضوره في تشكيل المستوى اللغوي لنصوصها في ظل الدور الذي يتقلده في العمل السردي باعتباره أحد المقومات الجمالية والتعبيرية المساهمة في تفسير الدلالات وتوليدها، وقد تحول هذا الاشتغال إلى ظاهرة بارزة جذبت انتباهنا واستحوذت على اهتمامنا والموجه في الأساس للكشف عن طبيعة وتجليات لغة الوصف في الرواية النسوية الجزائرية، والبحث عن الوظائف التي يؤديها فيها.

فما الذي تكتسبه نماذج الدراسة جراء الاحتفاء بتوظيف تقنية الوصف؟ وفيما تكمن جمالية الاحتفاء به؟

وقبل الخوض في غمار هذا البحث ومحاولة الإجابة عن إشكالاته ارتأينا أن نستهله بجانب نظري نبحث من خلاله عن مفهوم الوصف والأهمية التي يحظى بها في الرواية، في بناء صرحها السردي وتشييد معمارها، وفي تشكيل مضامينها وتيماتها، لنتطرق بعد ذلك إلى الجانب التطبيقي للدراسة وذلك من خلال البحث عن تجليات لغة الوصف في بعض النماذج لروائيات جزائريات أثبت تميزهن في عالم الكتابة الروائية وحققن مقروئية تؤهلهن لإسالة مداد أقلام الدراسة والتحليل، ويتأتى ذلك اتباعا من خلال ما يلي:

1. مفهوم الوصف وأهميته في بناء الرواية:

يعد الوصـــف من أهم الآليات الفاعلة في بناء معمار النص الســـردي، فمن خلاله يتم التعريف بالموصـــوف ونقل صـــورته أو التعبير عن موقف ما، إنه" ذكر الشـــيء بما فيه من

الأحوال والهيئات..." [1]، وإذا كان الوصف الحقيقي يعنى بنقل الموصوف كما هو في الواقع باعتباره " أسلوب إنشائي يتناول ذكر الأشياء في مظهرها الحسي"[2]، فإنه وفي العمل الإبداعي لا يكتفي بذلك، إذ يتحد مع عناصر بنائية أخرى لا تقل عنه أهمية ،وتجعل منه إجراء فنيا لا غنى للأديب عنه إذا أراد إنتاج أثر أدبي ناجح [3]، فهو "الطريقة التعبيرية الفنية المستخدمة لتقديم معنى أو معاني مختلفة إزاء موقف سردي معين أو تجربة أو شخصية أو مكان معين داخل العملية السردية"[4]، التي تظهر تفاعله مع السرد، بل إنه قوامه وركيزته الأساسية" فكل حكي يتضمن –سواء بطريقة متداخلة أو بنسب شديدة التغير –أصنافا من التشخيص أو أحداثا تكون ما يوصف بالتحديد سردا، هذا من جهة، ويتضمن من جهة أخرى تشخيصا لأشياء أو لأشخاص، وهو ما ندعوه في يومنا هذا وصفا" [5].

تختلف نسب حضور الوصف بحسب حاجة السرد له واستدعاء كل منهما للآخر، إذ "لا يمكن أن نصف دون أن نسرد ولا يمكن أن نسرد دون أن نصف" [6]، وهو وفي كل ذلك يؤدي وظائف كثيرة، من مثل الوظيفة التعبيرية الجمالية والتصويرية التخيلية، فضلا عما يساهم به من إبطاء لصيرورة الزمن أو حتى إيقافها داخل العمل الروائي، وفي اتحاد كل هذه الوظائف يتمكن وبفضل اللغة من نقل الموصوف (أشياء، أمكنة، شخصيات...) من صورته الواقعية الحقيقية إلى صورة متخيلة ضمن أسلوب لغوي يصل إلى ذهن المتلقي في شكل صور فنية محكمة البناء ومترابطة الأجزاء ثرية بالأبعاد والدلالات الجمالية، والسمات الفنية للعناصر المشكلة فيها.

إذا كان الوصف بهذا المعنى وهذه الأهمية فإنه رفيق النص الأدبي منذ نشأته وفي مختلف عصوره، وبمختلف أجناسه القصصية عامة والرواية خصوصا؛ حيث اتخذه الروائي وسيلة لعرض أحداثه وتأطير أفضيته والتعريف بشخصياته وبكل مجريات محكيه، وكثيرا ما يتشاطر مع تقنيات أخرى في أداء هذه الوظائف، فهو لا يأتي فيها منفصلا وإنما يتداخل مع تقنيات وآليات سردية أخرى من مثل السرد والحوار التي لا يتأسس صرح النص الروائي بمعزل عنها، وإن تفاوتت في نسب التوظيف فإنها تتحد في صنع الجمالية وإضفاء ملامح الخصوصية، التي

تتأتى" من التداخل بين الوصف والسرد فيما يمكن أن نسميه بالصورة السردية، وهي الصورة التي تعرض الأشياء المتحركة، أما الصورة الوصفية فهي التي تعرض الأشياء في سكونها "[7].

إن الوصف لا يكتفي بالتحامه مع السرد أو الحوار فحسب، وإنما يعمل في مقابل ذلك على تحقيق التفاعل بين العناصر البنائية الأخرى للنص السردي (الروائي) من شخصيات وأفضية وأشياء...، ويسهم في جلائها، مما يجعل إدراج لغة الوصف أمرا حتميا لا غنى للمبدع الروائي عنه، إذ يتنقل الموصوف ضمن صورة محكمة البناء مترابطة الأجزاء تمكنه في التعريف به عن طريق تراكيب اللغة بغض النظر عن حقيقته(الواقعية أو التخيلية والمجازية)، والمهم حسب ذلك هو التعبير الوصفي في علاقته بالموصوف من خلال موقعه ودلالاته في النص ككل.

يتمكن المبدع الروائي من خلال تقنية الوصف من إكساب نصوصه دلالات كثيرة وأبعاد متنوعة تفوق أحيانا ما تكسبه إياه التقنيات الأخرى المعتمدة في بناء صرحه، غير أن تنوع الوظائف التي يؤديها الوصف في النص الروائي تختلف من روائي إلى آخر تبعا لطريقة كل روائي في توظيفه ونسب الاحتفاء به ، كما تختلف باختلاف جنس مبدعه وعلاقته بهذه التقنية البنائية ، فالمرأة الروائية مثلا تفضل الإكثار من الوصف تبعا لطبيعتها التي تروم العناية الكبيرة بالتفاصيل وتتجه صوب تحري الدقة فيه، وهذا ما انعكس على نصوصها التي تأتي عادة موغلة في الوصف الملتحم مع باقي العناصر البنائية، والذي أصبح مزوقا نسويا لا يخلو من اللمسة الأنثوية، وهو ما سنحاول تحريه في نماذج الدراسة باعتبارها عينات من نتاج نسوي روائي جزائري، وذلك من خلال تتبع تمظهرات حضور الوصف في الرواية النسوية الجزائرية، والكشف عن موضوعاته والوظائف التي يضطلع بها في البناء الفني والجمالي للنصوص الروائية، ويأتي ذلك من خلال ما يلي :

2 . تجليات لغة الوصف في نماذج الدراسة:

1.2 تقنية الوصف فاتحة النصوص الروائية (الاستهلال الوصفي):

تشكل مقدمات نماذج الدراسة مدخلا هاما يعبر منها القارئ للوصول إلى البؤرة النصية، فهي عتبات توحي بالمضمون النصي العام منذ بدايته ،كما أنها فاتحة نقرأ من خلالها أسلوب الكتابة الروائية؛ حيث تؤطر الأحداث وتعرف بالشخصيات وبالعناصر الروائية

الأخرى، وهذا ما يبرر لجوء الروائيات الجزائريات في كل نصوصهن إلى توظيف الوصف الذي تفردن له حيزا خاصا به سواء أكان ذلك بإدراج مقاطع وصفية خالصة أم أخرى متداخلة مع السرد، ولاشك أن هذا التوظيف لتقنية الوصف في النصوص الروائية لم يكن أمراً اعتباطيا، بل هو خاضع لخطة محكمة البناء دفعت إليه أهمية الوظائف التي يضطلع بها الوصف في البناء العام للنص الروائي، كما أن اختيار مواطنه جاء لخدمة نظام محكم الأجزاء؛ حيث يكثر إدراج الوصف في بدايات النصوص غير أن هذا لا يعني انعدام تواجده في باقي الأجزاء، إلا أن قناعة الروائيات بأن البداية "تعد من أهم مواطن الوصف، وذلك لأن الوصف غالباً ما ينهض فيها بوظيفتي تأطير الأحداث من جهة الزمان والتعريف بأهم القائمين بها"[8]، كانت السبب الأساسي في اعتماد الاستهلال الوصفي.

ومن الروائيات اللاتي آثرن توظيف الوصف بشكل مكثف إلى درجة أنها قررت جعل مقدمات رواياتها وصفية بالدرجة الأولى "فضيلة الفاروق" ،ففي رواية "اكتشاف الشهوة "مثلا تورد المقطع التالي على لسان الساردة البطلة التي تصف أجواء وصولها إلى باريس قائلة:" حين وصلنا إلى باريس، لا أحد احتفى بقدومنا، المدينة كانت تشر بنخب ولادة المسيح، الأزقة ثملة والأضواء منتشية أما غرفة النوم... كانت كئيبة بألوان باهتة، وكانت صورة زوجته السابقة رابضة قرب السرير...في الخزانة بعض ثيابها الداخلية وصندل بكعب رفيع، وزجاجة عطر نسائي على (الكومودينة) وفي الحمام وجدت فرشاتين للأسنان" [9].

ولا تتوانى الروائية عن اعتماد الوصف لوضع القارئ في جو نصها منذ بدايته مرة أخرى، فنجدها تدرج مقطعا وصفيا استفتاحيا لرواية "مزاج مراهقة" يشترك مع سابقه في تكفل الساردة به، ومن ذلك قولها:" لا أدري بالضبط، هل هذه قصتي أم قصة توفيق عبد الجليل؟... فقد اختلفنا كثيرا عن بعضنا بعضا ليصمد الحب الذي نما بيننا وأمام هبات ما حدث لم نكن سوى زوبعة من تلك الزوابع الصغيرة التي لم تترك وراءها بعض الخسائر التي لا تذكر... لا أدري لماذا كنا...كما تكون الجبال والأنهار والمدن المدفونة في التاريخ، ثم حين انتهينا...انتهينا في أفعال الماضي الذي لا يموت" [10].

ولا تختلف الروائية" إنعام بيوض" عن سابقتها في احتفائها بالوصف وجعله فاتحة لنصها، غير أنها تختلف عنها في جعله غير خالص إذ يمتزج بالسرد بين الحين والآخر مما زاد من فاعليته وفتح باب السرد بطريقة غير مباشرة، ويتجلى ذلك في المقطع الوصفي التالي :"ينساب أسرابا متناغمة الحركة في اللّاوزن، يلامس هدير الكون السطح الرقراق للمويجات المتزاحمة.ويتخلل الأثير مفعما بعبق السنين، وأصوات الأزل يلملم أشتاته في فضاء يتسع لبرهة، كنصب فيه حزمة من خيوط سنا، تنعكس بقعة من نور على وجه المياه الرجراج يقال إن حزمة النور هذه هي إشارة لحضور إلهي اسمها نور، جلست نور على صخرة ملساء من بين الصخور الناتئة المدببة المسننة وأحست بالرطوبة الباردة للصخرة تلامس رطوبتها الدافئة السائلة، ورائحة البحر العبقة باليود تملؤ رئتيها وتخترق حجابها الحاجز، في تلك الساعة من نزوات النور، يتلون البحر بلون السمك الفضي، وينشطر خيطا لأفق، فتلتحم السماء بالماء وتتورد نشوة..."[11].

أما عن الروائية "جميلة زنير" فتتخذ من الوصف وسيلة لتأطير فضاء نصها "أوشام بربرية" منذ بدايته ليبدو الوصف لديها أكثر تفصيلا وبساطة، ويتجلى ذلك في المقتطف التالي: "في مزرعة جدي الواسعة ولدت ونشأت، تلك المزرعة التي تمتد على مد بالبصر، والتي ورثناها عن أجداد قضوا منذ زمنٍ بعيد، كان إسطبلا لحيوانات يقع جانب البيت الكبير رأسا مما يجعل جدي يتفطن لكل حركة غريبة تدب فيه .. وإن قلت هو حافل بالكثير من البهائم فهذا الأمر طبيعي في الريف، وبجانب الإسطبل مخزنا لتموين يقع على رأس ربوة تجعله عرضة للشمس والهواء طوال السنة" [12].

في حين نجد أن الروائية" أحلام مستغانمي" ومن خلال ثلاثيتها تغرق في الاستهلال الوصفي حد اعتباره تقعيدا أساسيا في كتابتها الروائية، فلا تسقطه في أي من رواياتها الثلاث محققة نوعا من الانسجام في التوظيف بينه وبين السرد تارة والحوار تارة أخرى، حد الالتحام الذي يصعب وضع الحدود الفاصلة بينها، ومما أوردته في بداية "ذاكرة الجسد" من استهلال وصفي نورد المقتطف التالي:" يأتي صوت عتيقة غائبا...لتعود بعد لحظات بصينية قهوة نحاسية كبيرة عليها إبريق وفنجانين وسكرية ومرش لماء الزهر وصحن للحلويات. في مدن أخرى تقدم القهوة جاهزة في فنجان وضعت جواره مسبقا ملعقة وقطعة سكر. ولكن قسنطينة مدينة تكره

الإيجاز في كل شيء إنها تفرض ما عندها دائما تماما كما تلبس كل ما تملك وتقول كل ما تعرف ولهذا كان حتى الحزن وليمة في هذه المدينة. أجمع الأوراق المبعثرة أمامي لأترك مكان الفنجان القهوة وكأنني أفسح مكانا لكِ. بعضها مسودا تقديمة وأخرى أوراق بيضاء تنتظر منذ أيام بعضا لكلمات فقط كي تدب فيها الحياة وتتحول من ورق إلى أيام."[13]، فمثلما كانت الكلمات بالنسبة للبطل السارد كفيلة بأن تجعل الحياة تدب في الورق كان الوصف كفيلا بتعريفنا بطقوس شرب القهوة في قسنطينة، وبطبيعة علاقة البطل بمن أفسح لها المكان لتشاركه شربها وهي الحاضرة وصفا والغائبة فعلا، بل وعرفنا بتفاصيل كثيرة ما كنا لنتعرف عليها لو لم يدرج هذا الوصف في بداية الرواية.

وتظهر أهمية الوصف أكثر في الكتابة النسوية حينما يتعلق الأمر بالخوض في أمور تخص الذات الأنثوية، كيف لا وهو الصادر من لدنها والمتخذ منها موصوفا، فقد أعلن الوصف في رواية " فوضى الحواس" ومنذ البداية عن تمحوره حول هواجس الذات الأنثوية بكل خصوصياتها بما في ذلك علاقتها بالآخر الذكوري، ومثال ذلك المقتطف التالي: " هي لا تدري كيف اهتدت أنوثتها إليه.هو الذي بنظرة يخلع عنها عقلها ويلبسها شفتيه، كم كان يلزمها من الإيمان كي تقاوم نظرته. كم كان يلزمه من الصمت كي لا تشييه الحرائق، هو الذي يعرف كيف يلامس أنثى، تمامًا كما يعرف ملامسة الكلمات بالانشغال المستتر نفسه. يحتضنها من الخلف، كما يحتضن جملة هاربة بشيء من الكسل الكاذب، شفتاه تعبرانها ببطء متعمد، على مسافة مدروسة للإثارة. تمران بمحاذاة شفتيها، دون أن تلامساه حقا، ثم تعاودان صعودهما بالبطء المتعمد نفسه وكأنه كان يقبلها بأنفاسه لا غير" [14].

لقد اتخذت الروائية من الوصف وسيلة لنقل مجريات لقاء سابق، غير أن استرجاع أحداثه وصفا من شأنه أن يؤسس لفعل الحكي اللاحق ويوضحه من خلال الإشارات الوصفية التي أبانت عن أهمية هذا اللقاء وتأثيره على المسار السردي العام من جهة، وعن استئثاره بالوصف وبأولية الظهور من جهة أخرى.

اختلفت النماذج الروائية السابقة في مواضيعها التي كشفت عنها مقدماتها، وبالتالي في انتقائها للموصوف وفي طريقة وصفه، وفي مقابل ذلك اشتركت في كونها تستهل بمقاطع

وصـفية، وفي كونها تحتفي بتقنية الوصـف التي تبدي فعاليتها منذ الصـفحات الأولى، ليكون بذلك الوصـف مدخلا وفاتحة وعتبة ووسـيلة تأطير وتعريف بها وبمضـمونها، فهو بهذا المعنى يسـاهم في تشـكيل الرواية وتمثيل أهم أحداثها وتأطير أفضـيتها وتكوين شـخصـياتها، لذلك توجهت كل روائية إلى التركيز على المقاطع الوصفية التي تخدم رؤيتها، وتعزز مواقفها وتساعدها على طرح هواجسها وانشغالاتها والإخبار عن تفاصيلها وجزئياتها.

أما عن نمط حضور الوصف في مقدمة هذه الروايات، فقد جاء مميزا ومكثفا في مفردات وجمل تتحد فتشكل مقاطع وصفية قد تطول أو تقصر، وقد تعددت موضوعاتها وتناوبت بين عدة حقول، فمنها ما يعنى بوصف الشخصيات، ومنها ما هو خاص بالفضاء، ومنها ما يتخذ من الأشياء موصوفا، منها ما هو وصف عام، ومنها ما هو خاص، والأكيد أنه لا تخلو أي رواية من وصف الشخصيات بمظاهرها وأبعادها، بسلوكها وردود أفعالها، بأدوارها وعلاقاتها...، وكذا وصف الفضاء الجغرافي بكل جزئياته وتفاصيله، بأثاثه وتجهيزاته...إلخ .ولذلك بات من الضروري أن نخوض في موضوعات الوصف من خلال ما يلي:

2.2. آليات اشتغال الوصف ودوره في تشكيل صورة الشخصيات والفضاء والأشياء في الرواية النسوية الجزائرية:

تتعدد مجالات الوصف في السرد النسوي إذ تشمل العديد من عناصر البناء الفني، وهذا ما يتضح بشكل جلي في نماذج الدراسة التي كثيرا ما تطالعنا بمقاطع وصفية متنوعة تنوع موصوفاتها التي تعنى إما بالشخصيات أو بالفضاء وما يؤثثه من أشياء، ومهما يكن أمر الموصوف، فإن الذي يهمنا هو طريقة وصفه، وما أضفاه على النصوص من أبعاد دلالية وسمات جمالية، وإذا ما أردنا رصد تجليات الوصف في نماذج الدراسة عموما، وبيان أهم الوظائف التي يؤديها في المتون الروائية المختارة وجب علينا الوقوف عند أنواع الموصوف السابقة الذكر كل على حدة، لنكون بذلك إزاء ثلاثة أنواع منه نتطرق إليها فيما يلي:

1.2.2. وصف الشخصيات:

يعد استثمار تقنية الوصف في تكوين الشخصية الروائية وتحديد أبعادها من الأساليب الفعالة في بناء النص الروائي نظرا لما تتيحه من فرص للتعرف عليها بين الفينة والأخرى بأسلوب يتحرى الوسطية، فلا يغرق في التفاصيل المملة إلا بحسب ما يسهم في جلاء صورتها وفي تزويدنا بالمعلومات الموضحة للمسار السردي، ولا يكون مختصرا مخلا أو على نحو يجعلها غامضة ومجهولة تكوينا وأبعاد وأدوارا.

في نماذج الدراسة يكثر الاحتفاء بتوظيف الوصف في تركيب الشخصيات من جهة والتعريف بها من جهة أخرى، على اختلاف أنواعها وتباين أدوارها، غير أن الشخصيات الأنثوية قد استأثرت باهتمام أكبر في الوصف مقارنة بالذكورية منها ، ويتجلى ذلك من خلال ما يلي:

1.1.2.2. وصف الشخصيات النسائية الأنثوية:

من الأمثلة على تواتر توظيف الوصف في نماذج الدراسة واعتماده كتقنية أساسية في التعريف بالشخصيات الأنثوية وتقديم أكبر قدر ممكن من المعلومات عنها ما نجده في رواية "السمك لا يبالي"، التي أصبحنا نتتبع المقاطع الوصفية الواردة فيها لنحظى بمزيد من التفاصيل عن الشخصيات الروائية علها تكون جديرة ببيان الأدوار التي تضطلع بها في المتن الروائي، والتي تساهم وبلا شك في تيسير استيعاب مسار الحكي، ومن ذلك نورد المقتطف التالي:"في ذلك المساء التقينا في بيتها، كم بدت له رائعة أمام القطعة الخشبية الكبيرة، تدلك عجينًا يتلوى ويتفرقع بين أناملها كحسناء تطرطق بغنج علكة - في حياتها كل شيء منظم، ببعثرة مدهشة، عمرها أربعة ألاف سنة حسب يقينها الراسخ هاجسها الدائم هو الألف عام التي سبقت مولدها"[15]

كشف المقطع الوصفي السابق عن وجود ذات أنثوية واصفة وأخرى موصوفة، والحقيقة أن طريقة الوصف هي التي تنم عن ذلك، فما كانت أن تظهر على هذا النحو الذي يشع بالحس الأنثوي لولا وجود مبدعة روائية تعي مواطن الأنوثة وتحاول كشفها ولا تجد لها سبيلا أنجع من الوصف الذي لا يعرفنا بالشخصية فحسب، بل إن دقة العناية بالتفاصيل تجعلنا نتصور وجودا فعليا للبطلة بالهيئة التي أوردتها الراوية.

ولا تختلف الروائية "أحلام مستغانمي" عن سابقتها في احتفائها بتقنية الوصف الداخلي منه والخارجي، وربما تفوقها قليلا، خاصة أن وصف الشخصية الأنثوية البطلة يتم من قبل الآخر الذكوري وليس أي آخر، وإنما هو عاشقها "خالد بن طوبال"، الذي ترتسم صورة البطلة الأنثى من خلال تصوره فلا يهمل صغيرة ولا كبيرة إلا وأوردها، وقد تعمدت الروائية أن تفعل ذلك؛ ربما لحماية نفسها من مأخذ التحيز لبنات جنسها خاصة عندما جعلت الذات الأنثوية تنافس الآخر على مركز البطولة، وربما لكونها أرادت التميز عن نظيراتها في كونهن يوردن صورة الشخصية النسائية من وجهة نظر الذات الأنثوية كاتبة وراوية وشخصية روائية، بينما أرادت لها هي أن تنجلي وفق منظوره وعلى لسانه؛ حيث يقول واصفا إياها:

- "جبهة عالية، حاجبان سميكان، عينان واسعتان ذات لون عسلي متقلب، شعر طويل أسود اللون"[16]

- "ها أنتِ ذي أمامي، تلبسين ثوب الردّة، لقد أخذت طريقًا آخر ولبست وجهًا آخر لم أعد أعرفه، وجهًا كذلك الذي نصادفه في المحلات والإعلانات لتلك النساء الواجهة، المعدّات مسبقًا لبيع شيء ما، قد يكون معجون أسنان أو مرهما للتجاعيد. أم تراك لبست هذا القناع فقد لتروجي لبضاعة في شكل كتاب".[17]

وإذا كانت المقاطع الوصفية السابقة قد أظهرت براعة في تصوير الذات الأنثوية بكل خصوصياتها، ونجاعة تقنية الوصف في تأدية هذا الدور، فإن الذات الراوية قد حرصت في مواضع عدة على إظهار ما تعانيه- الشخصية الأنثوية- من تسلط وتهميش وسوء في الأوضاع، مما جعلها تمقت أنوثتها وتحاول التنصل من ملامحها، فجاء الوصف في بعض الروايات لينهض بمهمة رصد التحولات التي طرأت على الشخصية الأنثوية، ومثال ذلك ما نجده في رواية "اكتشاف الشهوة"، إذ تتبع الراوية وصفا لشخصية "باني" منذ طفولتها التي كانت فيها بهيأة أنثى؛ "كنت الصبي ذا الضفائر الطويلة والقدمين الوسختين، والفستان الذي يتمزق لسبب ما والحلق الذي يضيع في "سوق العصر" أو في" الجزارين" [18]، ثم تجردت من ملامحها مكتسبة ما يجعلها ليست بأنثى ولا ذكرا فهي تتأرجح بينهما، "كنت صبيًا مشوهًا، يخلق عالمه الخاص في أزقة قسنطينة القديمة" [19]، وصولا إلى مرحلة الشباب التي لم تزدها سوى مقتا لأنوثتها، ما جعلها تعيش حالة المنفصم أو الشبيهة بذلك،

"مشكلتي مع النوم قذفت بي إلى سلوك جديد متقلب ومختلف عني تمامًا، شيئا فشيئا أصبحت امرأة عصبية معطلة الحواس، تتضايق من أنوثتها المنتهكة، من مظهرها في المرآة، من الخواتم والأساور والأقراط. وأصابع الحمرة وحملات الصدر ومن الصدر نفسه، ومن الشق الذي أحمله بين فخذي شيئا فشيئا وجدتني أتكاسل للنهوض من الفراش صباحًا، وأهرب لمزيد من العزلة وأتناول مزيدا من الأطعمة، وأموت كثيرًا في كل الأوقات"[20].

أما عن الوصف في رواية "مزاج مراهقة "فلا يقل فعالية ولا تواترا عنه في الروايات السابقة، كما يجمع بينها قاسما مشتركا يتمثل في تفعيله كتقنية لإبراز خصوصية الشخصية الأنثوية بكل تمظهراتها؛ المتمردة على الوضع أو الراضية به، ومن الأمثلة على ذلك المقتطف التالي:" في المرآة، واجهتني نفسي وكأنها شخص آخر، فتاة ككل أولئك الفتيات المتشابهات، قليلة هي الأشياء التي توحي بأنني أنا أقف أمام نفسي بوجهين. وجه المرآة، صامت كتوم، لم أفهم من ملامحه شيء. وجهي الذي أشعر به لم يعد يستوعبني بتلك الكذبة التي أرتدي. لم أعد أفهم من تكون تلك التي تقف أمامي، قد تكون الفتاة الأكثر قبولاً لدى الآخرين، لا يليق بها ذاك الطموح الفاجر الذي أخفيه بين الضلوع. كان جنوني في الحقيقة ينام تحت ذلك المنديل بتأثير صدمة التغيير غير المفاجئ" [21].

ونلفي في ذات الرواية مقاطع أخرى من مثل سابقها، نكتفي في هذا الصدد بهذا المقتطف الذي امتزج في الوصف مع السرد والحوار في سبيل جلاء صورة الشخصية"...لم أجد وسيلة لحرق دمه غير نزع الخمار من على رأسي والإلقاء به في وجهه، قلت له: إذا كان هذا ما يسمح لك لتتعدى على خصوصياتي فهو لك، وكان بودي أن أمزق الجلباب أيضا وأرميه في وجه ولكني تمالكت نفسي وعدت إلى البيت مكشوفة الرأس، وبمجرد وصولي أخذت مقصًا، وجلست أمام المرآة، وقصصت شعري أقصر ما يمكن" [22].

لم يكتف الوصف في المقطعين السابقين ببيان ما هو ظاهر للعيان من أوصاف خارجية بل بدا أكثر عمقا من خلال تسلله إلى العوالم الداخلية للشخصية الأنثوية والكشف عما تعانيه من ضياع جعلها غير قادرة على التعرف على نفسها، فما يبدو من ملامح برع الوصف في إظهارها مختلف كليا عما تضمره من أوصاف داخلية تنم عن نفسية متأزمة لا تعيها إلا ذات أنثوية

عاشت أوضاعا مشابهة أو أنها أقدر على النفاذ إلى دواخلها بالاعتماد على تقنية الوصف الأقرب إلى ما هو ظاهر جلي أكثر مما هو مضمر مدسوس، غير أنه وبفضل براعة الروائية وإجادة تعاملها مع تقنية الوصف جعلت صورة الشخصية الأنثوية جلية في مختلف تمظهراتها.

2.1.2.2. وصف الشخصيات الرجالية (الذكورية):

وإلى جانب الاحتفاء الكبير والمكثف بتقنية الوصف في التعريف بالشخصيات الأنثوية، نلحظ في مقابل ذلك حرص الروائيات الجزائريات على عدم إهمال التعريف بالشخصيات الرجالية باعتماد التقنية ذاتها؛ حيث تقدمن صورا متعددة عنها تتوافق مع تعدد أنواعها في الحياة الحقيقية بغية إضفاء نوع من الواقعية على شخصيات عوالمهن الروائية أو حتى الإيهام بذلك، وقد اعتمدن في ذلك على أساليب لغوية وفنية متميزة تضمن بناء صور وصفية تمثيلية مفعمة بالحياة؛ حيث تستحضر المرأة المبدعة الآخر وتحييه وتكونه وفقا لما هو عليه في الواقع أو وفقا للصورة التي تشتهيها وتفضلها، وتعطيه من الأوصاف ما يتوافق مع الأدوار التي هو بصدد أدائها وتجسيدها ضمن النصوص الروائية، وتراعي ضرورة بيان الانطباعات النفسية والحسية التي تتشكل بمقتضى ذلك.

ومن الصور الوصفية للشخصيات الذكورية التي تواترت في نماذج الدراسة ما جاء في رواية "مزاج مراهقة"؛ حيث حاولت الروائية "فضيلة الفاروق" أن تقدم صورة إيجابية عن الآخر الذكوري ممثلا في شخصية "توفيق عبد الجليل"، صورة مختلفة عن تلك المقدمة في روايات أخرى والتي غلبت عليها السلبية والعدائية، ولم تجد لها في ذلك أفضل من تقنية الوصف ، وقد تكفلت بذلك الراوية البطلة وعنه تقول:"توفيق اختلف في دخوله أماكني الخفية، وكان حضوره شبيه بذلك المطر الحفيف الذي نحب في أواخر الشتاء. لكنه جاء باكرًا وغادر باكرًا، جاء مبهمًا وغادر مبهمًا، لم استمتع به.... هذا هو ..بهندامه ببساطة بسمرته بأنفاسه، بحركاته، بكلماته ...كما هو"[23] .

ويتواصل اعتماد الروائية على تقنية الوصف في التعريف بشخصياتها، ففي رواية "اكتشاف الشهوة" مثلا والتي تطلب معالجة موضوع وضع الذات الأنثوية في المجتمعات الذكورية فيها إيراد صور وصفية عن الآخر الذكوري المتسلط-الأخ والأب- على الأنثى تارة، واللامبالي بها -الزوج- تارة

أخرى، وعن هذا الأخير وفي مقطع وصفي كاشف لحقيقته معرفا بشخصيته تقول الراوية :"مود ...بالمختصر المفيد لم يكن لي، إنه رجل لا يجيب على كل الأسئلة. فكثيًرا ما يعلق أسئلتي على سماعة من الصمت، وينصرف إلى عمل ما يخطر على باله فجأة. فقد عرفت على مرّ الأيام أنه رجل له لغته الخاصة، فهو يأكل أو يدخل الحمام أو ينام حين لا يعرف أن يجيب، وكان صعبًا عليّ أن أتفاهم معه ولغة التخاطب عنده لها عدة أشكال مبهمة" [24].

أما عن الروائية "جميلة زنير" فتتجلى أهمية اللغة الوصفية عندها أكثر في رواية" أوشام بربرية"، وذلك من خلال ما قدمته على لسان الراوية من أوصاف عن شخصية الزوج ، وقد أبانت اللغة الوصفية صورته على نحو جعله ممقوتا لدى زوجته "خولة" ومعروفا لدى القارئ كذلك، ومنها قولها واصفة إياه:"فهو محسوب على المسلمين ظلمًا، خاصة حين يتبجح بأنه لم يسجد لله مرة واحدة في حياته ولا يصوم أيضًا. غادر قلبي بالتدرج حتى كدت أكرهه وصرت أنظر إليه بازدراء بعد أن عافته نفسي وصار جسدي يرفضه" [25].

2.2.2. وصف الفضاء:

وتظهر فعالية اللغة الوصفية كذلك في تصوير الفضاء باعتباره محورًا أساسيا من المحاور المشكلة للنص الروائي والحاضن لكل أحداثها ، ولذلك فإن وصفه يعد أمرا ضروريا للتعرف عليه وعلى كل ما يدور في فلكه من أحداث، وكذا للتعرف على الشخصيات التي تقطنه أو تتردد عليه وتتحرك فيه مجسدة أدوارها ووظائفها.

إن الأهمية التي يحظى بها الفضاء في بناء النص الروائي جعلت الروائيات تتفنن في إيجاد طرق مثلى لتصويره والتعريف به، ولم تجدن طريقة أنجع في ذلك من اعتماد تقنية الوصف؛ حيث أخذت لغة الوصف في نماذج الدراسة على عاتقها مهمة تقديم وتصوير الأفضية التي احتضنت الأحداث الروائية بشتى أنوعها، وعلى اختلاف درجة أهميتها، وتباين علاقاتها بالشخصيات الروائية التي لابد لها من فضاء تنشأ فيه، وتعيش في كنفه، وتتحرك في إطاره، ومن ثمة فقد كانت لغة الوصف هي الوسيلة الوحيدة التي مكنت الروائيات من تأطير الفضاء داخل متونهن وإعادة تشكيله وتصويره وبيان امتداده وحدوده وفقا لما يتماشى مع ما جرى فيه من أحداث

ووقائع، حتى يتم نقله إلى ذهن المتلقي في شكل صور وصفية متنوعة تعج بخصوصياته وتنطق بتفاصيله.

إن المقاطع الوصفية للفضاء الروائي التي تم تناولها في مدونة الدراسة كانت كفيلة بإظهار حرص الروائيات على إظهار الدور الفعال الذي تؤديه هذه التقنية في تشييد معمار المتون الروائية من جهة، وعلى توظيف تقنية الوصف في التعريف بهذا المكون البنائي من جهة أخرى؛ حيث تراءى لنا أنها تضمن له تشكيلا فنيا راقيا ضمن المستويات البنائية للنصوص الروائية، كما تبرز من خلال هذه التقنية الجمالية النوعية والهندسة المعمارية لهذه الأفضية ذات الملامح الجغرافية والطبوغرافية والأبعاد الدلالية المتنوعة.

ففي رواية " اكتشاف الشهوة" تنقلنا "فضيلة الفاروق" ومن خلال تقنية الوصف إلى عوالم شتى لترصد أحداثا، وتؤطر أفضية، وتتبع حركة الشخصيات، ويأتي كل ذلك خدمة لموضوع نصها الذي يحاول أن يبين التناقضات القائمة في نمط الحياة وتركيبة الشخصيات بين فضاء وآخر؛ حيث جعلت بنية الفضاء الجغرافي الموصوفة تتنازعها ثنائية (الوطن/المهجر)، فتراها تنقلنا إلى قسنطينة ببيوتها وبأزقتها تارة، واصفة إياها" أزقة قسنطينة القديمة، تلك الأزقة الحجرية الضيقة التي تفوح برائحة عقاقير العطارة، تلك الأزقة أزقتي أنا، والتي كانت تشكل جزءًا من انطوائي، ورفضي لمنطق الطبيعة العتمة والظلال. وصياح الباعة، وحركة العجائز والشيوخ البطيئة، تلك الأزقة المغلقة كانت تمنحني بعض الطمأنينة"[26].

"...والزنقة تعني مجموع ما يحيط ببيتنا من بيوت وحوانيت، وشوارع ضيقة ولفيف الحزن الذي يطوق الحياة والفرح الذي يأتي متنكرًا، والفقر الذي يتبنانا جميعًا، والحاجة، العوز والمرض الذي كيفما كان نداويه بالنعنع. الزنقة! عالم الرجال الطليق، والشقوق النسائية، وبكاء الرضع والأطفال، وصراخات الذين يلعبون ويمرحون، وتراكم القهر الداخلي الزنقة!يومًا بعد يوم، وشهرًا بعد شهر، وسنة بعد سنة، ودهرًا بعد دهرًا هي ذاتها ..." [27].

لتنقلنا تارة أخرى إلى باريس بمنازلها وشوارعها " يوم العيد هو الأسوء على الإطلاق بالنسبة لي في باريس، هنا كل شيء على عادته الناس متأنقون دائمًا الأطفال يعيشون طفولتهم بفائض من الفرح، الأماكن نظيفة، اللافتات تبتسم الشوارع في عيد متواصل وممل" [28].

وغير بعيد عن حفاوة إدراج لغة الوصف نلفي رواية "أوشام بربرية" تجعلها أساسية في تأطير فضاء نصها، وفي إضفاء جمالية تنبع من تصوره وتخيله قائما أمام أنظارنا من خلال كلمات وأوصاف، فمن خلال المقاطع الوصفية نتصور القرية بجمالها في الحاضر "أشرقت الشمس على الروابي والحقول الندية فمنحتها سحرًا بديعًا، وانعكست فوق قمم الجبال البيضاء فازداد بريقها حدة ولمعانا" [29]، ننتقل إلى المدينة ونتجول بين أرجائها من خلال قراءة وصفها، مثلما انتقلت إليها البطلة، وصورتها الراوية ومن خلفها الروائية وصفا محكم البناء فيه من الواقعية أو حتى الإيهام بها الشيء الكثير "نزلت المدينة فجذبني بريقها الأخّاذ وانبهرت بها، كل شيء تغير أمام نظري ... لم ألبث بعد طول تقوقع أن اندمجت وسطها أعمل ما يعمل أهلها..." [30].

أما عن لغة الوصف عند "إنعام بيوض" فتأتي مغرقة في العناية بالتفاصيل، ولا تقتصر في ذلك على أفضية معينة، بل إنها تصورها على نفس الدرجة من التدقيق والاهتمام بالتفاصيل، خاصة حينما يتعلق الأمر بفضاء الطفولة المسترجع، فإنها وفي وصفه تورد كل صغيرة وكبيرة وكأنها تعيش فيه في الوقت الحاضر لا على أساس أنها تصفه من مخزون الذاكرة وتبعا لما بقي راسخا فيها عنه من تفاصيل ومجريات، ففي وصفها له وعلى لسان البطلة تقول: "كان بيت جدها إذن يقع في حي محي الدين ابن العربي أو الصالحية، أقدم وأعرق أحياء دمشق، والمكان الذي اختاره الأمير عبد القادر الجزائري ليكون مقر ضريحه (صدفة تاريخية أم مفارقة قدرية) كان البيت على غرار أكثر البيوت الدمشقية في ذلك الوقت نسخة للتصورات المستلهمة من الكتب السماوية ...بيت رحب بمجرد أن تغلق بابه الخشبي السميك المسمر، وتلج إلى الردهة المظلمة أو الدهاليز حتى ينقطع لغط الحارة، وأصوات الباعة المتجولين ...ويزيغك السطوع المنبعث من الفناء أو أرض الديار، بسواقي المياه الرقراقة "بردي"، التي تبدو راكدة لكنها تنساب بهدوء يساير العتيق التي لا تخلو منها دار. كانت شجرة النارنج هذه تذكرها بالحلم (الرؤية) الذي راودها مرارًا، ترى فيه مريم العذراء تضمها إلى صدرها بحنان ثكلى ابنها المسيح أمام خندق حفر لتوه، ورائحة التراب الندي تملأ الأنوف تنتصب في الجهة الأخرى من الخندق شجرة عجيبة" [31].

ولم تكتف لغة الوصف عند الروائية باستجلاء ما هو ظاهر وخارجي، بل تعدته إلى رصد ما هو داخلي، من خلال بيان انعكاسات الفضاء وتأثيراته النفسية على الشخصيات وتأثرها به،

فقد مكنها الوصف من تصوير فضاء البيت وتشخيصه على نحو يجعله يحس ويشعر شأنه شأن الكائن البشري؛ حيث " بدا البيت الدمشقي العتيق حزينا وكأنه يودع آخر سكانه، وقد تناثرت الرزم والصناديق والحقائب المربوطة بالحبال لمنع تفتقها حول البحرة التي سكت خريرها، وعكست مياهها الراكدة أغصان شجرة النارنج المترنحة تحت ثقل ثمارها البرتقالية، كان السكون يخيم على الأرجاء" [32].

3.2.2 وصف الأشياء:

لقد نالت الأشياء هي الأخرى قسطا وافرا من الاهتمام؛ حيث كثر إقبال الروائيات على وصفها وصفا مفصلا، وأظهرن في ذلك تكثيفا لغويا عاليا بدا جليا من خلال الصور الوصفية التي تعج بها النصوص الروائية، غير أن وصف الأشياء على تنوعها يعلوه شيء من السكون والثبات أحيانا مراعاة لطبيعتها في الواقع، لتأتي صورها أحيانا أخرى ناطقة بلسان حالها فتكشف طبيعتها وتضاف لها صفات أخرى بحسب ما يخدم دورها في تأثيث الفضاء والكشف عن خصوصية علاقتها بالشخصية التي تظهر من خلالها.

والملاحظ أن اللغة الوصفية في هذا النوع تنقل لنا كثيرا من التفاصيل والجزئيات التي قلما يهتم بها الرجل في كتاباته الروائية، على عكس الأنثى الكاتبة التي تهتم أشد الاهتمام بإيراد تفاصيل الأشياء، وذلك يرتبط عموما بطبيعة المرأة وبتركيبتها الخاصة التي تجعلها دقيقة الملاحظة وتكترث لصغار الأمور، إذ تهدف إلى الاستعانة بها في كتاباتها وإكسابها دلالات وصور ومعاني تخيلية مضافة لتلك التي عرفت بها فيا لواقع المعاش، فنجدها تسهب في وصف كل الأشياء وتركز على تلك التي تؤثث عالمها المؤنث من ملابس وأثاث وأكل، فضلا عن الأغراض النسائية الخالصة كأدوات التجميل والزينة والحلي...، ويمكن في هذا الصدد أن نحاول حصر الأشياء الموصوفة من خلال تصنيفها إلى أربعة خنادق وهي:

أشياء المرأة: ثياب داخلية- الكيلوتات – حمالات الصدر- أقراط وخواتم- الكحل- علب الياسمين- ذهب مغشوش- الشيفون النسائي- أحمر الشفاه - حقيبة- صور- فرشاتين- أواني الحمام- حقائب اللباس القصير- أعواد السواك - مفروشات- صينية قهوة نحاسية كبيرة عليها إبريق وفنجانين وسكرية ومرش لماء الزهر وصحن للحلويات.

تأثيث الفضاء: سرير الكومودينة- أثاث غرفة النوم- أثاث الغرفة القديم-تلفزيون-حصير طراحة الصوف.

المأكولات والمشروبات: الخسيس-الخبز المدهون بالسمن- طبق المسفوف المزين بالزبيب-مرق البطاطا واللوبيا والعدس - الحمص–البوراك- المحاجب- الزلابيا الكسكس-ثريدة الشاي- القهوة-كابوتشينو-النبيذ الويسكي-البيرة-النيسكافيه-القاطو- الكعك الفرنسي الخيار- الجزر.

أشياء متنوعة: مظلة- هاتف-سيارة-جرس-ورق الكلينيكس-زبالة- سجائر متنوعة-حبوب منومة ومهدئة أدوية-أفلام جنسية- الباب- زر-الضوء-كؤوس بلاستيكية- مدفأة – حوش- قصعة – عجين-الساعات- المناشف-البالونات-قطع نقدية – الحلوى-صور-علب اللغة مفروشة على الأرض-الأرصفة- الورد-السلع القادمة من وراء البحر-الورق- مذياع لا يتعب.

بالعودة إلى أنواع الأشياء الموصوفة يتأكد لنا أن الروائيات تمكن من الإحاطة بها- الأشياء- على اختلاف أنواعها، واستطعن التعريف بها بشكل عام، بل إنهن لم تكتفين في ذلك بمهمة رصدها كما هي، وإنما حرصن على إعادة تشكيلها جماليا فأكسبنها دلالات أعم من تلك التي تحملها في الواقع، خاصة ما كان منها من الأشياء الأنثوية الخاصة، فضلا عن إكسابها دورا بارزا في بناء النص الروائي وإظهار اشتغاله المرجعي، فهي حسب وجهة نظرهن، وحسب مواقف إدراج التعابير الوصفية الخاصة بها ليست مجرد خلفية عرضية، بل هي من المكونات الهامة والفعالة في بنية النص الروائي لما يقدمه فعل وصفها من معاني ودلالات وأبعاد متنوعة من شأنها أن تثريه وتساعد على فهم أحداثه والإحاطة بكل ما يتعلق به من مضامين ومجريات، فضلا عن دوره في إماطة اللثام عن سمات التميز التي تطبع النص الروائي بفضل تفعيل خصوصية وصف الأشياء في مدونة الدراسة.

كما تنقلنا اللغة في هذا النوع من الوصف(وصف الأشياء) إلى فضاء نصي يعج بالتفاصيل والجزئيات على صغر حجمها أو كبره، وببساطة مظهرها أو تعقيده، الذي يفصح عن ثراء وتعدد دلالاتها، وقد اتخذت اللغة في نماذج الدراسة إيقاعا خاصا هي أهل لعرض هذه الموصوفات بشكل يكفل لها وللروائيات سمات تميز تطبعا لمتون الروائية؛ إذ نجد أن

الروائيات توائمن بين صورة الأشياء في الواقع وفي العالم الروائي المتخيل مع إمكانية الإضافة أو الإنقاص أثناء وصفها من المعلومات والتفاصيل التي لا تخدم السياق العام الذي وردت فيه، كما أنهن تحرصن على إكسابها دلالات ومعاني إيحائية غير تلك التي وضعت لها في الأصل، وذلك من خلال تطويع اللغة وتكثيفها لتكون جاهزة للوصف كما هي جاهزة لإثراء دلالات الأشياء الموصوفة، التي تدل على إعمال الفكر والخيال في عملية الوصف، وصياغة ثمرة اتحادهما من خلال اللغة لتكوين صور وصفية متميزة، وتتضح بعد كل ذلك أهمية تقنية الوصف على مستوى الأداء اللغوي باعتبار أن" اللغة جزء من اللحظة التي ينشئ فيها الفكر، الأشياء وكل فكر لا يركب الأشياء إلا وهو يركب في نفس الوقت جملة من العلامات ولا سبيل إلى المعرفة إلا من خلال العبارة التي تسوقه" [33].

يتضح لنا من خلال ما سبق أن اتساع الفضاء وتعدد الشخصيات وتنوع الأشياء في نماذج الدراسة هو الذي استدعى حضور الوصف بشكل مكثف؛ حيث يتكفل هذا الأخير بمهمة التعريف بالموصوف وتأطيره وإظهاره للملتقي ضمن مقاطع وصور محكمة البناء من شأنها أن تسهم في بناء الدلالات والمعاني التي تروم الروائيات التعبير عنها وتبليغها للمتلقي، ذلك أن الوصف هو وحدة بنائية تستعين بها اللغة لبلوغ أهداف جمالية وتحقيق غايات فنية.

كثيرا ما يتحول الوصف عند الروائيات الجزائريات إلى لوحات فنية بديعة التشكيل من خلال هندستها اللغوية الخاصة، ولما يؤديه من وظائف وأدوار تعريفية وتأطيرية، فهو لا يكتفي بما هو ظاهر وحقيقي في الموصوف، بل يتعداه إلى المضمر منه، ويضفي عليه كثيرا من الأوصاف التي تنتسج في خياله على اعتبار أن الوصف يتيح" تجسيد مشهد من العالم الخارجي في لوحة مصبوغة من الكلمات فنستطيع أن نقول أن الوصف في الرواية هو وصف لوحة مرسومة أكثر منه وصف واقع موضوعي"[34].

هكذا كانت الشخصيات بكل أبعادها، والأفضية بكل تأثيثاتها، والأشياء بكل أنواعها موضوعا ومنطلقا للوصف عند الروائيات الجزائريات، فمن الشخصيات النسائية إلى أخرى رجالية، ومن المكان الجزائري الذي كثيرا ما يحد من حرية المرأة ويبتعد بها عن المشاركة في

مظاهر الحياة الفكرية والحضارية، إلى المكان الآخر، ذلك المكان المفتوح بكل صوره وتفاصيله وأبعاده. ولا شك أن اعتماد الروائيات على تقنية الوصف لرصد هذه الاختلافات في شكل ثنائيات ضدية يدل على فاعليته في هذا الصدد أكثر من غيره من تقنيات الكتابة الروائية الأخرى؛ حيث يساهم في وإضفاء لمسة خاصة على البنية اللغوية للروايات، فضلا عما تكتسيه من دلالات متعددة خادمة للسياق الذي ترد فيه هي أبعد من دلالات الرؤى البصرية التي نراها في الواقع نتيجة لانتقالها إلى العوالم المتخيلة.

3.2 خصوصية الوصف الأنثوي في الرواية النسوية الجزائرية:

من خلال تحليلنا للمقاطع الوصفية السابقة والمتعلقة تارة بالاستهلال الوصفي، وتارة أخرى بوصف الشخصيات والأفضية، وكذا الأشياء- والتي سنكتفي بها تجنبا للاستطراد-، نخلص إلى أن الروائيات ترمن الإكثار من توظيف تقنية الوصف التي تمكنهن من إيراد التفاصيل التي تحبذنها، وهذا ما جعل اللغة الوصفية المدرجة في أغلب الأحيان مميزة توظيفا ودورا ودلالة، إذ لها قدرة فائقة على جعل المتلقي يشعر أنه بصدد مشاهدة الموصوف وليس بصدد القراءة عنه لكثرة احتفائها بإيراد كل تفاصيله وعرض خصوصياته، فعندما تصف الروائية فضاء ما يخيل إلينا أننا انتقلنا إليه فعلا، وأننا نراه حقا، ولسنا نتعرف عليه من وجهة نظر الروائية ومن خلال الأوصاف التي توردها عنه فحسب، فهي تعرض كل خصوصياته التي وبلا شك ستساعدها في الإخبار عن الحدث الذي سيحتضنه أو سيجري فيه لاحقا، وعندما تصف شخصية نعتقد بأن لها وجودا في الواقع وليست شخصية ورقية من صنع خيالها، فنراها تصول وتجول على مرأى أعيننا، وذلك هو حال كل موصوف عند الروائيات الجزائريات، بل وعند المرأة بشكل عام التي تروم اللجوء إلى الوصف أكثر منه إلى التقنيات الأخرى لدرجة أنها قد تُطنب في إيراد تفاصيل وجزئيات الموصوف بشكل لا يضاهيها فيه الرجل المبدع غير أنه لا يكون اعتباطيا، فكل وصف عندهن مبرر لأنه يرتبط بالسياق الذي يرد فيه، ويأتي كتمهيد يساعدنا على استيعاب ما سيليه من أحداث، ويساهم في وضع المتلقي في المجال المناسب للتفاعل مع المضمون الحكائي.

كشفت لغة الوصف في النماذج الروائية عن المواضيع الخاصة التي تشغل الذات الأنثوية، وكذا عن القضايا العامة التي تشترك فيها مع الآخر، وساهمت في وضع المتلقي في سياق المضمون

القصصي المتناول في كل رواية ،كما لعبت دورا بارزا في تأطير أحداثها من خلال ما جادت به من نماذج وصور أبرزت البؤرة النصية، فجاء وصف الشخصيات والأفضية وغيرها مما يحتاج إلى هذه التقنية ليكون أكثر وضوحا وجلاء مرتبطا بعضه ببعض، حتى أننا نكاد نجزم بأن الحيز الوصفي وعلى اتساع امتداده يأتي مترابطا، فكل مقطع وصفي يرتبط بسابقه ويمهد للاحقه رغم تناوله موضوعا مختلفا، أما إذا كان موضوع الوصف واحدا، وقلما يكون كذلك، فإننا نلحظ الاختلاف في جزئيات الموصوف في كل مرة، مما يعطي للوصف امتدادا أكبر في رصد الموصوف الذي قد يبقى واحدا وإن تعددت طرق وصفه من مرة إلى أخرى.

برعت الروائيات الجزائريات في إضفاء لمسة أنثوية تطبع لغة الوصف، وهو الهدف الأساسي وملمح الخصوصية الذي يسفر عنه الاشتغال المميز على تقنيات الكتابة الروائية التي حققت الإيهام اللفظي، ليمكنها بدوره من ضمان انتقال المتلقي إلى الفضاء الموصوف بكل أشيائه، ورؤية الشخصيات عل اختلاف أدوارها، لما له من قدرة على إيراد أدق الجزئيات قصد استنطاق الموصوف(مكان - شخصية أو حتى شيء)، وقد أعان الروائيات في ذلك تفعيل رؤيتهن واتساع أفق تطلعاتهن الذي أتاح لهن الإحاطة بالموصوف مهما بلغت درجته من الصغر أو البساطة، وهي رؤية على اتساعها تحيط بالداخلي الصغير والمضمر المحسوس، بقدر ما تحيط بالخارجي الكبير والملموس والظاهر للعيان، وفق مفاهيم وتصورات أنثوية محضة تسم اللغة وتهبها ثراء ينتج لغة أنثوية توليدية لها قدرة على التصوير والاستنطاق منبثقة من خصوصية المرأة في حد ذاتها.

يخضع الوصف في النصوص الروائية لخطة محكمة تبدي فعاليتها في نقل الموصوف وتصويره؛ حيث يبدأ بناء المقاطع الوصفية من بؤرة محددة ثم يأخذ حيز هذه البؤرة بالاتساع شيئا فشيئا غير أن الأكيد أنها تأتي في حلقات منفصلة شكلا متكاملة مضمونا.

لم يعد الوصف في هذه الروايات مرتكزا على بؤرة وصفية محددة، وإنما ينتقل بين الأفضية المتسعة والشخصيات المتعددة...، ويأتي في الأغلب مكثفا بشكل ملحوظ وأكثر ميلا إلى الواقعي وكأنه عين الكاميرا تنقلك من فضاء لآخر، ومن شخصية إلى أخرى بحركات مكثفة سريعة أحيانا

وبطيئة أحيانا أخرى، لكنها وفي كلتا الحالتين تحاول أن تكون واقعية أو حتى توهم بذلك ليشعر القارئ أنه أمام وثيقة تسجيلية تنقل له أوصاف الصورة من خلال كلمات اللغة.

وعلى العموم فإنه يمكننا أن نبرر لكثرة الاحتفاء بتوظيف تقنية الوصف بمبررين، أولهما رغبة الروائيات في اتخاذه كمستوى من مستويات التعبير عن تجاربهن المعقدة وعن الهواجس والانشغالات التي تؤرقهن، ولهذا فقد أعطينه أهمية كبيرة تشاطر تلك التي منحت لبقية المقومات الأخرى المعتمدة في بناء النص الروائي، وجعلنه يحظى بحضور مضاعف ومكثف، وثانيهما توافقه مع طبيعة تكوينهن وتركيبتهن التي تختلف عن الرجل، فالمرأة بشكل عام أكثر اهتمامًا بإيراد التفاصيل وميلا لتقديم الشروح والإقدام على التعريف والتبسيط والذي لا يتأتى لها إلا من خلال إدراج تقنية الوصف، والحقيقة أنه لا يظهر منفردا بل إنه يتداخل مع المقومات البنائية الأخرى ليؤدي دوره على النحو الأمثل في التشكيل النصي، ويتمكن من إبلاغ وإيصال المعنى المراد من الموصوف أو إظهار الموقف مما يوصف.

خاتمة:

من خلال ما سبق نخلص للقول أن اشتغال الروائية الجزائرية على لغة الوصف باعتبارها تقنية من أهم تقنيات الكتابة الروائية قد كفل لها ولنصوصها سمات تميز وملامح خصوصية تطبعها فسطوة الوصف واستبداده بالسرد في كثير من الأحيان ضمن مدونة الدراسة جاء نتيجة لقدرته على تعميق الإحساس بما حولها من أفضية وشخصيات وحتى الأشياء، والتي كثيرا ما تتحول إلى ما يشبه" القرينة الدالة" على ما تمثله بالنسبة لها، فهي تشارك المرأة ومن ثمة الروائية في وحدتها وتملأ فراغها وتؤنس غربتها، إذ تهتم بها المرأة في تأثيث الفضاء، كما تفعلها في تأثيث نصوصها الإبداعية من خلال الاهتمام باختيار الأشياء والأثاث والتفنن في ترتيبها ثم وصفها ثم نقلها للمتلقي الذي تبدو له وكما في السرد النسوي عامة مشحونة بالعواطف الآدمية المتأججة، تتأثر بالشخصيات وتؤثر فيها، بل وتفعل فعلتها في نفسيتها خاصة عندما تحسن الروائيات فعل القبض على تلابيب هذه الأشياء التي تؤثث عوالمهن الروائية المتخيلة، وتبرعن في تسليط ظلالها الوافرة على كل من حولها، لتنشئ من خلال لغة الوصف جسورا للتواصل بين الذات الأنثوية (المبدعة /الساردة /الشخصية الروائية) وعالم الأشياء المحسوسة والملموسة

والمستمدة من الواقع، وتساهم في تكوين أبجديات العالم المتخيل لدى الروائية الجزائرية المبدعة.

الهوامش:

[1]- أبو الفرج قدامة بن جعفر، نقد الشعر، مطبعة الجوائب، ط1، 1302هـ، ص41.

[2]- المرجع نفسه، ص107.

[3]- إبراهيم صحراوي، تحليل الخطاب الأدبي، ط1، الجزائر، الآفاق، 1999م، ص101.

[4]- المرجع نفسه، ص101.

[5]- عبد الحميد لحميداني، بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافي العربي للطباعة والنشر والتوزيع ، ط3، الدار البيضاء- بيروت، ، 2000، ص78.

[6]- إبراهيم صحراوي، تحليل الخطاب الأدبي، ص101.

[7]- سيزا قاسم، بناء الرواية، (دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ)، دار التنوير للطباعة والنشر،ط1،الدار البيضاء – بيروت ، 1990، ص83.

[8]- محمد نجيب العمامي، الوصف بين النظرية والنص السردي، دار محمد علي، ط1، تونس، 2005م، ص61.

[9]- فضيلة الفاروق، اكتشاف الشهوة، دار رياض الريس، ط1، بيروت –لبنان، ، ص7-8.

[10]- فضيلة الفاروق، مزاج مراهقة ،دار الفرابي، ط1، بيروت لبنان، ص5.

[11]- إنعام بيوض، السمك لا يبالي، الجزائر، منشورات الاختلاف، ط1، 2004، ص9.

[12]- جميلة زنير، أوشام بربرية، الجزائر، منشورات التبيين، الجاحظية، 2000، ص4.

[13]- أحلام مستغانمي، ذاكرة الجسد، دار الآداب، ط16، بيروت- لبنان، ، ص8.

[14]- أحلام مستغانمي، فوضى الحواس، دار الآداب، ط9، بيروت –لبنان، 1999، ص9.

[15]- إنعام بيوض، السمك لا يبالي،ص189.

[16]- أحلام مستغانمي، ذاكرة الجسد، ص54.

[17]- المصدر نفسه، ص 17.

[18]- فضيلة الفاروق، اكتشاف الشهوة، ص15.

[19]- المصدر نفسه، ص15.

[20]- المصدر نفسه، ص12.

[21]- فضيلة الفاروق، مزاج مراهقة، ص17.

[22]- المصدر نفسه، ص50.

[23]- المصدر نفسه، ص5-6.

[24]- فضيلة الفاروق، اكتشاف الشهوة، ص10.

[25]- جميلة زنير، أوشام بربرية، ص60.

[26]- فضيلة الفاروق، اكتشاف الشهوة، ص17.

[27]- المصدر نفسه، ص17-18.

[28] - المصدرنفسه، ص67.

[29] - جميلة زنير، أوشام بربرية، ص 14.

[30] - المصدرنفسه، ص21.

[31] - إنعام بيوض، السمك لا يبالي، ص13-14.

[32]- المصدرنفسه، 94.

[33] - عبد الصمد زايد، المكان في الرواية العربية(الصورة والدلالة)، الجمهورية التونسية، دار محمد علي للنشر،ط1، 2003، ص 318.

[34] - سيزا قاسم، بناء الرواية، ص 110.

. -

*** *** ***